

خطاب الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب
الأمين العام لمجمع اللغة العربية
في حفل استقبال الدكتور مختار هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

سادتي المحترمين، سيداتي الفاضلات :

١ - آل هاشم بدمشق

قال الحصني ، صاحب منتخبات التواريخ لدمشق^(١) :

«ومن الأسر التي اشتهرت في دمشق بالتجارة، آل هاشم العبجيّ، وقد
اشتهر من رجال هذا البيت، في عمل الخير، وإيواء أبناء السبيل، وامساعاف
الفقير، الحاج راغب... والحاج حسن^(٢)....»

وقد تفرع من رجال هذا البيت، جماعة استوطنوا في مكة، واشتهروا في
الوجاهة والتجارة بها. وقد تركوا من بعدهم ذرية كبيرة بارك الله فيهم.»

سادتي :

من لطائف المعارف :

(١) محمد أديب تقي الدين ج ٢ ص ٩٠٠ دمشق في ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م.

(٢) زميلنا الجديد هو : الدكتور مختار بن عارف بن مصطفى بن حسن المذكور.

أنّ أسراً نبيلة، في أقاليم متباعدة، لها تقاليد الأصيلية، تحافظ عليها، وتعتر بها، لا تفرط فيها، ولا تتخلى عنها؛ إذا نبغ من أبنائها ثلاثة، أمراء حرب كانوا، أو قضاة مستشارين، سفراء أو شعراء كانوا، أو علماء نابيين، يشار إليهم بالبنان، كانت تفاخر بهم، وتُعلي عمَد بيوتها أو جُدُرَها، بما يدل على فائق اعتزازها، ويُنوّه بفضل الثلاثة من أبنائها.

واليوم يتم للدماشقة من آل هاشم الكرام، ما كانت تحلم به عشائر عديدة في غابر الأيام، وما تتمناه في عصرنا، أسر مرموقة في أرقى البلاد، لقد كان بيننا من أمد غير بعيد، رائد فلسفة وحكمة^(٣)، واقتدنا من زمن قريب لغويّاً متمكناً، كان كبحر علم عميق وهادئ^(٤)، والساعة ينضم إلى مجمعنا، الثالث من آل هاشم، نظامي حاذق، علمه واسع، وهو على خلقٍ قويم، وأدبٍ مختار.

٢ — مولد المختار ونشأته

إن كنت يوماً في غربيّ دمشق القديمة^(٥)، وجعلت خلفك باب الجابية^(٦)، مولياً وجهك شطر بابها الشرقيّ، كنت على رأس طريق، كاد أن

(٣) افتقد المجمع في ١٩ من حزيران سنة ١٩٨٢ الدكتور حكمة هاشم، وكان قد انتخب عضواً عاملاً في المجمع خلفاً للأستاذ محسن الأمين وقد استقبله في جلسة ٢٥ من آذار سنة ١٩٥٤ الأستاذ شفيق جبيري.

(٤) فجع المجمع في ٨ من كانون الثاني سنة ١٩٨٨ م بالأستاذ عبد الهادي هاشم، وكان قد انتخب عضواً عاملاً في المجمع خلفاً للأستاذ عز الدين التنوخي، وقد استقبله في جلسة ٢٤ من نيسان سنة ١٩٦٩ م الدكتور عدنان الخطيب.

(٥) دمشق القديمة وتعني بها دمشق داخل السور، ومعالم سورها ما زالت واضحة معروفة.

(٦) أحد أبواب دمشق التاريخية، ينسب إلى مدينة الجابية في الجولان وكان لها دور كبير في حوادث التاريخ، والباب في عصرنا الحاضر لصيق جامع السنانية الشهير، وهو على بعد خطوات إلى الجنوب من مدخل سوق مدحت باشا البديل الحديث للطريق المستقيم الذي كان يمتد بين بابي دمشق الغربي والشرقي.

يكون، في غابر الأيام، مستقيماً^(٧).

تتلوى الدروبُّ على جانبي الطريق، وتكتظ الأحياء فيما بينها بالسكان، وتتشعب فيها الأزقة والحارات، حيث تتجاور بيوت الفقراء وبيوت الأغنياء، كما يتفرع منه العديدُ من أسواق المدينة، يضمُّ الواحد منها تجارَ صنفٍ واحد، وأحياناً ما كان متشابهاً من الأصناف، فإذا ما بدأت تمشي في طريقك رويداً رويداً، رأيتَ عن يمينك بوابةً دربٍ ضيق، يعرف بزقاق البرغل، يؤدي بالداخل فيه إلى أطراف حيِّ القصاعين الشهير، فإذا رحلت تمضي قُدماً بضع خطوات، فقد اجتزت سوق النسوان متداخلاً بسوق القطن وتاليه سوق الصوف، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تقف مشدوهاً بجمال مأذنة عن شمالك رائحة البناء^(٨).

وترى قبالة المأذنة مدخلاً حيِّ الخضيرية العريق، وهو يؤدي بالسالك فيه، إلى مسجد كان في يومٍ من الأيام جزءاً من «دار القرآن الخيضرية»^(٩).

(٧) تذكر كتب التاريخ أن اسم الشارع كان (الفسقار) وورد هذا الاسم في بعضها محرفاً (النسقار مثلاً في خطط الشام ج ٦) ويقول صلاح الدين المنجد نقلاً عن سوفاجه: إن الفسقار تعريب لكلمة Foscarion التي تدل على مكان صنع الفسقة وبيعها، والفسقة شراب. كان الجنود الرومانيون مولعين به (انظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المجلد ٢ ص ٥٦).

(٨) وهي تعلق الجامع المنسوب إلى (القلمي) ومن الغريب أن أكثر المؤرخين الذين تصدوا لتعداد مساجد دمشق أغفلوا اسم هذا الجامع وكان آخرهم عبد القادر بدران، وبعضهم اختلطت عليه الأسماء فظن انه جامع ابن هشام الذي هو على بعد بضع عشرات من الأمتار إلى الشرق منه، على أن الدكتور أسعد طلس محقق كتاب (ثمار المقاصد في ذكر المساجد ليوسف بن عبد الهادي) ألحق به ذيلاً قال فيه: «مسجد القلمي نجده مذكوراً بكثرة في كتاب خلاصة الأثر للمجدي ويظهر أنه كان في ذلك العصر من أعظم مساجد المدينة ولا تعرف شيئاً عن القلمي المنسوب إليه، وهو الآن مسجد صغير بمحراب ومنبر عاديين وبجانب بابه تقوم المنارة الحجرية المربعة الرائعة ذات الزخارف البديعة والمقرنصات والنقوش وهي من أروع مآذن العالم الإسلامي. وهذه المآذنة تؤيد ما قلناه من أن المسجد كان أعظم بكثير مما هو عليه الآن» انظر ص ٢٤٦ من طبعة بيروت ١٩٤٣.

(٩) أنشأها سنة ٨٧٨ هـ قاضي القضاة ابن خيضر الشافعي — انظر وصفها في كتاب دور القرآن في دمشق للنعمي تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٣ بيروت.

غير أن العامة قلبت ترتيب ثاني الحروفِ مع ثالثها، عندما أطلقت الكلمة اسماً لحيها.

فإذا تابعت سيرك عشرات قليلة من الأمتار، وقفت وأمامك دربان، درب عن اليمين وآخر عن الشمال.

إن انحرفت شمالاً فأنت في سوق الصوف الجديد، وإن شئت تسللت إلى سوق مدحت باشا بديل الطريق المستقيم، لترى باب مسجد سيدي هشام ومأذنته الجميلة^(١٠)، وقد حجبتهما عنك أبنية لم يخطط لها.

أما إذا انعطفت إلى اليمين، فأنت تشرف على نزلة طاحونة السجن^(١١)، فإن أخذت نزولاً، انتهيت إلى طاحونة يحركها ماءٌ ينصبُّ من أحد فروع بردى انسرب نحوها متخفياً عبر الأسواق والبيوت.

وترى على جانبي طريقك أبواباً إن ولجت أحدها ولجت بيتاً دمشقياً أصيلاً:

دهليز طويل، ثم ساحة سماوية، تتوسطها بحيرةٌ يجري فيها الماء ليل نهار، وقد فرشت الساحة بالأحجار الملونة أو بالرخام المقطع الناصع البياض، تتناثر فيها قِصاعُ الزهور وأصائصُ الشمشير، تظلُّها أشجارٌ من الكبادِ والتارنجِ والليمون، ويتسلق حيطانها الليلكُ وأنواعٌ من الياسمين، وعلى سطوحِ غرفها الشتوية نصبت العرائشُ، ثمَّ أهل البيتِ بـ(البيرق) من أوراقها في الربيع، وبالغنب من ثمارها في الصيف وفي الخريف.

(١٠) كتب علي بايه: مسجد هشام جده سنة ٨٣١ هـ القاضي بدر الدين بن مظهر قال أسعد طلح في هامش تحقيقه ثمار المقاصد لابن عبد الهادي: (له مناره عجبية الصنع انظر سوفاجه ص ٧٧) ثم أضاف في الدليل ص ٢٥٨ (وللمسجد منارة حجرية مثمثة بدبعة في بنائها وزخرفتها).

(١١) لم أعتز فيما قرأت على ما يبرر هذه التسمية، وكنت أعتقد أنها ترجع إلى القرون الأخيرة، غير أنني وجدت ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير المتوفى سنة ٥٧١ هـ يذكرها في تاريخه مما يدل على أنها تسمية قديمة.

وفي واحدٍ من تلك البيوت، رأى زميلنا المختارَ النورَ^(١٢). وعلى رحابِ سجاده الفريش حبا، وعلى بلاطه وبين الخمائل والرياحين درج. فلما يفع حُمل على الذهاب إلى المدرسة، مروراً بسوق الخياطين فإلى ما (بين البحرتين) حيث (العلمية الوطنية) إلى اليوم، تقوم.

٣ - تحصيل المختار وطلبه العلم

وأمضى صاحبنا سنته الأولى في المدرسة، يتعلم مبادئ القراءة والكتابة، فلما أتم الثانية، كان قد ختم القرآن الكريم. وفي حفل الاحتتام، وقد اعتادت المدرسة إقامته في كل عام، كان نصيبه القاء قصيدة من نظم مؤسس المدرسة^(١٣)، يقول فيها:

سمعتُ سُويجاً في الشرق يشدو بصوت ماله في الحسن حننٌ
يقول إلى متى، والعلم طبُّ بكم داء الجهالة يستبدُّ

ويبدو أن الوزن في الكلام، صادف موقفاً في طبعه، فوعى معنى الشعر قبل الأوان، فأخذ يدنو تارةً وينعم أخرى، فإذا به يصبح شاعراً، قبل أن يعرف العروض ويدرس الأوزان.

فلما كان تلميذاً للخليل، شاعرٍ دمشقيّ الكبير، أثار إعجابَه كيف يقول مختارٌ الشعر وهو صغير! فسأله: هل تكتبُ الكلام نثراً، ثم تحوله إلى

(١٢) ولد زميلنا على ماهو مسجل في مصحف الأسرة، في ٢٤ من رمضان سنة ١٣٢٣ للهجرة وهذا التاريخ يوافق ٤ من آب سنة ١٩١٥ للميلاد.

(١٣) هو محمد خير الشهير بأبي الخير الطباع عالم مرِبٍ أديب ثقة، أسس المدرسة العلمية الوطنية، وكان أهل دمشق في أمس الحاجة إلى مثلها، فنمت نمواً سريعاً، مولده ووفاته بدمشق (١٢٩٨-١٣٢٩ هـ - ١٨٨٠-١٩١١ م) انظر الأعلام للزركلي ج ٦ ص ١١٩٠ طبعة ١٩٨٠ وقام بعد وفاته تلميذه الفقيه أحمد عبيد بجمع شعره في ديوان صغير شرحه محمد سليم الحنفي وصدر عن مطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣٠ هـ.

شعر؟ أجابه: لا، إنما يزدحم القول في صدري، ولا ارتاح إلا إذا نطقتُ به.

قال الخليل في نفسه: إنه جوابُ شاعر، والتفت إليه يقول: سيد مختار إذن أنت شاعر.

ويذكر شاعرنا هذا الحوار يوماً، فإذا بقصيدة تجري على لسانه، وفيها يقول:

وكان أستاذنا فيها الخليل فهل
 ألام يوماً إذا ما جئتُ مفتخراً
 وجئت يوماً بأبياتٍ مهلهلةٍ
 قدمتها بجيأٍ خائفاً حذراً
 فقال: مختارٌ أقبل، جئتُ سدّتهُ
 فقال: قل لي نظم الشعر كيف جرى؟
 هل تكتب القول نثراً ثم تنظّمه
 وفق العروض، وفيه صرّ مقتدراً
 فقلت: كلا، يجيش الشعرُ في تحلدي
 أضيّقُ صدراً به إلا إذا صدرا
 فقال: يُفتحُ ديوانٌ بصفّكم
 فيه يسجّلُ ما يأتني به الشعرا
 وهذه أول الأشعارِ فاتحةً
 إنني أرى الغيثَ بعدَ اليومِ منهمرا

إلى أن يقول حفظه الله:

وأين أستاذنا بل أين رفقتنا
 من راح منهم وممن مازال منتظرا

٤ - اختار يتابع دراسته الثانوية والجامعية

وأتقن صاحبنا الفرنسية في المدرسة الأرثوذكسية، وكان أن استهوته دروسُ مديرها زميلنا الراحل جميل صليبا، فأجاد الفلسفة، وأبدع فيها، فكان الأول بين رفاقه، كدأبه عاماً بعد عام.

حتى إذا ما أنهى تحصيله الثانوي، اتجه إلى المعهد الطبي العربي^(١٤). ففجأة الطبُّ بوفرة المصطلحات اللاتينية فيه، فعَمَد إلى تعلّمها بلا معلم، ولكن اللاتينية لم تغنه عن الإغريقية، فشدا من هذه ما استطاع.

وكان على مقاعد السنة الثانية، عندما أجاز أساتذة الطبِّ، نشرَ مقالٍ دبَّجَه عن مصطلحات مقترحة اطلع عليها في مجلة مجمع القاهرة مع رأي يراه في بعضها، وصدّرتَه مجلة المعهد^(١٥) بقولها:

(وردت علينا هذه الرسالة المفيدة من الطالب السيد مختار هاشم، فنشكر له عنايته بتنقية لغة الضاد العلمية من الشوائب).

وعندما أُجيز صاحبنا، فحملَ لقبَ طبيب^(١٦)، لم يجد، وقد سَدَّت الحرب العالمية عليه، طرق السفر إلى بلاد التخصص، بدأ من تسجيل نفسه طبيباً في وزارة الصحة والإسعاف العام، ومن ثمَّ من أن يخدم في مشافئ المرضى والمتوجعين. حتى إذا ما انطلق السفر إلى أوربة عبر البحار، وكان من الناجحين في مسابقات البعثات الحكومية، أقلته باخرة إلى الغرب، موفداً للتخصص في طبِّ الأطفال^(١٧).

(١٤) كان انتساب صاحبنا إلى معهد الطبِّ العربيّ بدمشق سنة ١٩٣٤ م.

(١٥) نشرت المقال مجلة معهد الطبِّ. انظر ص ٣٨٠-٣٨٣ و ٣٧٢-٣٧٩ من مجلدها العاشر سنة ١٩٣٥ م.

(١٦) تخرّج صاحبنا في معهد الطبِّ العربيّ من الجامعة السورية سنة ١٩٤٠ م.

(١٧) كان السفر في كانون الثاني سنة ١٩٤٦ م.

٥ - أوبة الزميل المختار إلى الوطن

وعاد صاحبنا إلى الوطن^(١٨)، وقد غنم من أورية خير ما يُغنم منها، يطيب الأطفال انتظاراً لإسناد الدولة له المنصب الذي تأهل له، غير أن النضال السوري، وقد انتهى بطرد جيوش الغزاة، تحت اسم الانتداب^(١٩)، أدى إلى إنشاء جيش سوري مستقل، فاندفع صاحبنا مثل كثير من الشباب، إلى الانخراط في خدمة القوات المسلحة^(٢٠)، فاستأثرت هذه القوات بجهوده، بعد أن اكتشفت بعض مزاياه، حتى كان مندوبها خبيراً في لجنة المصطلحات الطبية، التي عُهد إليها بوضع (المعجم العسكري)^(٢١) وكانت برياسة المجعي الكبير، الأمير مصطفى الشهابي، كما كان مندوبها في لجنة المصطلحات الطبية العسكرية في القيادة المشتركة^(٢٢).

٦ - اهتمامات زميلنا العيّد وبحوثه

لم تترك خدمة الدولة باخلاص واستقامة، لصاحبنا وقتاً ضافياً للاهتمام بما يهواه من بحوث، أو للعمل على تحقيق ما يصبو إلى إحيائه من مخطوطات، أو للقيام بنشر ما يرغب في نشره من أعمال، حتى إذا ما أُحيل على التقاعد^(٢٣)، بدأ يمارس هواياته، وينجز تطلعاته، في البحث والتحقيق والنشر. لقد نشر زميلنا الفاضل، بحوثاً ومقالاتٍ وتحقيقاتٍ نشرها استوفى فيه، ما يحب كل قارئٍ أن يجده فيما يقرأ، من عمقٍ ومتابعةٍ وتوثيقٍ.

(١٨) في أيلول ١٩٤٨ م.

(١٩) تم انسحاب الجيوش الغازية في ١٧ من نيسان ١٩٤٧ م.

(٢٠) تطوع للخدمة في الجيش السوري في ١٦ من أيلول سنة ١٩٤٩ م برتبة رئيس.

(٢١) صدر هذا المعجم في شباط سنة ١٩٦١ م.

(٢٢) كان ذلك في سنة ١٩٧٠ م.

(٢٣) أُنبئت خدماته في القوات المسلحة بتاريخ ١٩٧٠/٥/٣١ م برتبة عميد.

لقد قرأتُ جُلَّ ما نشره الزميل ، ودونت ملاحظات على ما قرأت ، وهأم بعضَ ما قرأت ، وشيئاً مما علقتُه على ما قرأت :
لقد قرأتُ لك يا أخي ، بحثك المستفيض ، عن «أوزانِ الأطباءِ ومكائيلهم»^(٢٤) ، وراعني فيضُ الكلماتِ التي وردت في كتب الطب العربي ، للتعبير عن المقادير الطبية ، في مداواة الأمراض المختلفة .

لقد أعجبنى تفصيك أطراف البحث ، وحُسنُ عرضك لمختلفِ المصطلحات ، وزدتنني ثقةً في دقة تحريكِ المصادر ، لما نقدت ما بين أيدينا من معجمات ، في قصورها عن تحديثِ أساليبها في التعريفِ بالمصطلحات ، وبلغ اعجابي بنقدك هذا مبلغه ، في الانصاف الذي وجهته ، لأحد زملائنا القدامى الراحلين ، إذ قلتُ : «ويقتضى الانصافُ ، أن استثنى من هذا الحكم ، معجم مثنى اللغة»^(٢٥) تأليف الشيخ أحمد رضا ، فإن ظهوره كان خطوةً مباركةً ، في طريق العملِ المعجمي ، ويكفيه فخراً أنه عرّف الأوزان ، بلغة يفهمها أبناء هذا العصر وذلك بمقارنتها بالنظام المتري»^(٢٦) .

ولأخفي عنك التقديرَ العظيم ، الذي اكننُته لك ولتواضعك ، إذ ختمتُ بحثك القيمَ الطويلَ بقولك : «وإذا قدر لي أن ألقى بصيصاً من الضوء على هذا الموضوع ، فإن ما يكتنفه من ظلمات لا يمكن تبديده إلا بتضافر جهود الباحثين ، وأمل في ذلك كبير»^(٢٧) .

٧ - حوار مجعبي مع الزميل المختار

أخي : هل تسمح لي بمحاورتك حواراً مجعياً بحتاً ، عن «مشاكل معجميات معقدة» ؟

(٢٤) نشرته مجلة مجمع دمشق افتتاحية للمجلد ٦١ ج ١ ص ٣ سنة ١٩٨٦ م .

(٢٥) طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ م .

(٢٦) المجلد ٦١ من مجلة مجمع دمشق ص ٨ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٤٨ .

لقد قرأت البحث الذي عننته «الألفاظ حائرة»^(٢٨)، وتمتعتُ بقراءته، كما أنني أعدت قراءته، ابتغاءً تكوين فكرة واضحة محددة، فاحترت، كيف حارت الكلمات بين يديك؟ هل كانت حائرة لأنها حارت حَوْرًا وحَوْرًا فرجعت من حالٍ إلى حال، أم كانت حائرة لأنها حارت حَيْرَةً وتحيرت فكانت حيرانةً وحيرى، إذ غَشِيَّ بصرها فضلتُ سبيلها ولم تهتدِ إلى قرار، أم إنَّ المعاني اثقلتها فتحيرت، كما تتحيرُّ الأرضُ إذا امتلأت بالماء، أو تحيرت مدلولاتها، كما يتحيرُّ السحابُ إذا لم تسقه الريحُ إلى جهةٍ ما، أو أنها كانت حائرةً باثرة لا تدلُّ على شيء؟

لقد وجدتُ في بحثك، شبه مدخلينِ مقتضيين، كأنهما كتبا من قبل عالِمين مختلفين أحدهما مختصٌّ بعلمِ «المعدنيات» والآخَرُ بعلمِ «النباتات» إلى جانب عالمٍ معجميٍّ متعمقٍ، يوازنُ بين مختلف المعجمات، العربيِّ منها والاعجميِّ، سواء أكانت وحيدة اللغة، أو ثنائيتها أو ثلاثيتها، يُصدر آراءه، واقفًا على صخر أصم، كقوله عن أدَى شير^(٢٩): إنه متسرع في إرجاع الكلمات العربية إلى أصل فارسيٍّ لمحض التشابه، حتى إنه جعل كلمة السراب فارسية الأصل^(٣٠).

لقد انطلقتُ في بحثك، من جمعٍ ما قيل في تعريف ثلاثِ كلماتٍ هي: المَعْدِنُ والفِلِيزُّ والجَوْهَرُ، من «المعدنيات» وثلاثٍ أخريات هي: الأَشْنَةُ والطُّحْلُبُ والحَزازُ^(٣١) من «النباتات».

(٢٨) نشر البحث في المجلد ٥٩ ج ٣ من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨٤ م.

(٢٩) رئيس أساقفة سعرد الكلداني مؤلف كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) طبع الكاتوليكية بيروت سنة ١٩٠٨ م.

(٣٠) انظر ص ٨٨ في المرجع الأنف الذكر. وانظر بحثنا عن (حرف الباء رمز للماء في المعجم العربي) في مجلة المجمع بدمشق سنة ١٩٦٨ - ١٩٧٠ م.

(٣١) في صفحة ٣٩١ من معجم الألفاظ الزراعية، قال الأمير مصطفى الشهابي: «لم يميز العرب قديماً نباتات Mousses و Algue و Lichen بعضها من بعض. وقد جرينا في تسميتها على ما هو معروف في الشام منذ بدء النهضة الحديثة فقلنا على التابع: طحلب فأشنة فحزاز، أما في مصر فقد أقر جمعها كلمة طحلب مقابل Algue ورأيه بعد التحقيق أقرب إلى الصواب. ودرج بعض أساتيد



إن التردد والاضطراب في معاني الكلمات السُّ التي ذكرتها، حير كثيراً من العلماء قبلك، وهو سبب قوي في الاختلاف واللبلة بين المصطلحات في مختلف جامعات الوطن العربي ومن أسباب تأخر تدريس العلوم بالعربية في كثير منها. ودعوتك إلى توحيد المصطلحات وتحديد الألفاظ الدالة عليها، دعوةٌ خيرةٌ كانت من أهم الدوافع إلى إقامة اتحاد الجامعات العربية.

إن اتحاد الجامعات العلمية العربية يعمل منذ قيامه على التفريق بين لغة الشعر والأدب، ولغة العلم التي تقتضي تحديداً معاني الكلمة الواحدة تحديداً دقيقاً لا لبس فيه ولا غموض، ولا يكون هذا، إلا باغفال المترادفات واستبعاد الأضداد الناشئة في أمهات المعجمات العربية عن جمع مختلف اللهجات العربية على ما بينها من تباعد.

لقد قام اتحاد الجامعات العربية بخطوات جيدة في سبيل تحقيق ما يصبو إليه من أهداف، غير أنها خطوات بطيئة، والحضارة اليوم تسير بسرعة الصواريخ، والسبب في هذا معروف، فالنظر وإن كان من حديد، غير أن اليد قصيرة وتكاد تكون مشلولة.

٨ — الزميل العيد محققاً

إن من أهم ما صنعه زميلنا الجديد، تحقيقه لرسالة طيبة هامة، ولعشوره على تلك الرسالة قصة، يجدرُ بي أن أرويها لكم، قبل أن أتحدث عن نشرها.

لقد اعتاد الطبيب الشاعر، إذا ما زار باريس، أن يمرّ بدار الكتب

→ النبات في الجامعات المصرية على جعل الأشنة أمام Lichen والحزاز أمام Mousse. وكل ذلك اصطلاح لأن الحقيقة كما قلت غير واضحة تماماً. ولا بد لنا من الاتفاق على التوحيد. نباتات دنيا تتألف من تكافل فطر وأشنة، أي فطر وطحلب في مصر، وهي تعيش على الصخور والحيطان والتراب وقشور الشجر، ومن العجيب أن المعجم الوسيط معجم مجمع مصر لم يتعرض لتذكر الحزاز!

الوطنية للاطلاع على ما فيها من جديد، أو على ما في كنوزها من مجاهيل المخطوطات .

وفي زيارة غير بعيدة العهد، عثر في فهرس الدار، على اسم مخطوطة جاءت فيه كلمة (ابورية؟)، متبوعةً بإشارة استفهام، تدلُّ على جهلِ المفهرسِ معناها، وأحبُّ طيبنا الاطلاع على المخطوطة، فإذا بها رسالة تحمل هذا العنوان: (العبورية الوردية في الأبحاث الوردية) فاستشعر على غموضِ هذا العنوان: بأن الرسالة قد تكون ذات قيمةٍ طبيةٍ أو نباتية، فطلبَ نسخةً مصورةً عنها، وكان شديد الأسف، لما وجدها (مخرومةً) تفتقد صفحاتٍ من أولها، ولولا أن مصنفها اختتمها بقصيدة، أبان فيها عن نفسه، لظلت مجهولةً النسب .

لقد قام الزميل الكريم، بتحقيق الرسالة ونشرها^(٣٢)، بعد أن عثر على ترجمة وافية لمصنفها^(٣٣) .

بدأ التحقيق بالاجابة على اشارة الاستفهام، الموضوعة عقب كلمة (ابورية؟) فقال: «إن المؤلف يشيرُ إلى الهوية القائمة بين الناس، وتقطع أسباب الودّ بينهم، حتى أصبح كلُّ فردٍ كوكباً يدورُ في مداره الخاص، هذا في عهد المؤلف حين كان عبورُ هذه الهوية ممكناً بطريق الوردِ والازهار . أليس التعبيرُ ضرورياً لسريانِ الودِّ بين الناس؟ وتعبيرُ الوردِ لا يقتصرُ على ما ينشرُ من عبير، فللازهارِ لغةٌ تتجاوزُ الشَّمَّ إلى النظر، وتتجاوزُ النظرَ إلى معانٍ أخرى، وهذا ملحوظٌ لطيف للمؤلف محمود بن يونس في تسمية كتابه «العبورية الوردية في الأبحاث الوردية» .

(٣٢) مؤلف الرسالة طبيب دمشقي اسمه هو عمود بن يونس الملقب شرف الدين، الخطيب الطيب الشهير بالحكيم الأعرج، قرأ في الفقه على عبد الوهاب، وفي الطب على أبيه، وفي القراءات والتجويد على الشهاب أحمد الطيبي، وولي إمامة المقصورة بالأمرى روي خطابه أيضاً . درس بالحاتونية وبالجميلية وكان حسن الصوت والقراءة وله شعر حسن ولد وتوفي بدمشق في شعبان سنة ١٠٠٨ هـ انظر خلاصة الأثر للمحبي ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٣٣) نشرت الرسالة في مجلة التراث العربي العدد ٢٢ كـب . دمشق اتحاد الكتاب العرب كانون الثاني

أخي الدكتور مختار :

لقد كنت واضحاً، موقفاً إلى حدّ كبير، في تحديث رسالة كتبت بلغّة القرن العاشر الهجري الطيبة، إلى لغّة القرن الخامس عشر، لغّة يفهمها غير الأطباء، ويفهمها غير المختصين، لقد كنت موقفاً في التعريف بمؤلف العبورية، وفي عرض ماورد فيها من أنواع النباتات، وذكر الأسماء العلمية والشائعة، لأصناف الزهور والورود التي ذكرت فيها.

لقد استوقفتني تعليقاتك اللطيفة، على ماورد في الرسالة، من ألفاظ أعجمية، فقد ذكرت « ديبد الورد » وقلت : « ذكر داود الأنطاكي أن الطيب الذي ركّب هذا المعجون، كان يبيعه بثقله ذهباً، وضنّ به حتى سلب اغتيالاً على يد خادمه، ذكر داود اخلاطه، فبلغت عشرين مادة، إلا أنها لا تزيد عند ابن سينا، على ثمانية .

ونجد في كتاب العبورية تركيبها، مطابقاً لتركيبها في القانون .

أما تسمية « ديبد الورد » فيزعم داود أنها بربرية، معناها (المأخوذ فيه الورد بوزنه)، إلا أن ابن سينا أوردتها (أقراص الورد وتسمى دنيورد) ولا يخفى أن الكلمة سريانية، من دني بمعنى حب، الدال التي هي من علامات الإضافة، وردا بمعنى ورد . ومع ذلك فإنها ترد في أكثر المخطوطات بصيغة ديبد بحرف الباء بدلاً من حرف النون، وهذا من قبيل التحريف الشائع الذي يؤدي إلى قراءة الكلمة في المخطوطة، من خلال الصورة المشوهة التي ارتسمت في ذهن القارئ » (٣٤) .

٩ - زمينا الجديد شاعراً وكلمة ختامية

سادتي :

إذا كان الشعرُ الجيد، يعتمدُ أول مايعتمد، على الموهبة والروحِ

(٣٤) انظر ص ١٨٤ من مجلة التراث العربي الملمع إليها سابقاً .

الشاعرية، فإن الموهبة، ولا شك، أول أركان الشعر، غير أن الموهبة وحدها لا تُغني، لاجادته ونهاية الشأن فيه، فلا بدّ لعلو الكعب فيه، والتجلية في مضماره، من صقله بالممارسة والمران عليه، فإن لم يتوافر لذي الموهبة هذا، ظلّ شعره مقبولاً ومسموعاً لوضوح الشاعرية فيه.

ولأجد ختاماً لكلمتي، في التعريف بزميلنا الجديد، خيراً من أعيد على مسامعكم، قصة (العبورية الودية في الأبحاث الوردية) في أبيات من قصيدة فاضت بها قريحة طيبنا الشاعر، وقد بكى فيها، ماضعاً أو سرق من كنوز تراثنا، ومن مؤلفات علمائنا الأوائل، مع إشارة لطيفة، إلى ما يجب على علمائنا المعاصرين، بذله من جهود لا حياء ما في التراث من كنوز غالية.

قال حفظه الله في قصيدة له:

عبورية وديّة طوّحت بها	صروف النوى حتى استقرّ اغترابها
بشارع ريشليو أقيمت وسميت	أبوريسة، ما أن يهون مصابها
تقول جعلت الورد مني رسالةً	إليكم ولكن لم يعد لي جوابها
وهنت على أهلي ولم ألق عندهم	مقاماً وهزنتني بداري كلابها
تلقفني شخص غريب وحطّ بي	بدارٍ ودادٍ لا تضيق رحابها
ولكنني خلّفت بعضي بجلق	وقد ضاع لم يحفظه مني كتابها
وكم ضاع مثلي من كرائمٍ يعرب	إلى الغرب زُفت حيث تمّ انتهاها
وكم من سبايا للتراث قد احتفت	ولم يدر أهل الدار أين جنابها
فأين حماة الدار من آل يعرب	لمن تُقتنى أسياؤها وحرابها؟
سلام على شهم أحس بغربتي	وغربة نفس يستجد عذابها

والآن أدعو الزميل الكريم إلى إلقاء خطابه الموعود والسلام عليكم .

★

★ ★